سندباد مصري

*

لقد اصبح السندباد رمزا لكل مغامر ، يجوب الافاق بحثا عن العجائب والغرائب . والسندباد المصري الذي اتحدث عنه اديب فنان، في نظرته الى الحياة وفي استجابته لتجاربها المتعددة ، وهو اديب فنان في تعبيره عن هذه التجارب . يكتب حين يكتب ـ على حد تعبيره ـ « في بحبوحة الادب والفن : حرية في الفكر ، وتحرر في الاسلوب.»

دفعته السندبادية الى التخصص في علم الاحياء المائية والى الطواف في افاق البر والبحر ، وعاش اثناء دراسته في البلاد الاوربية « بعقلية اوربية وقلب مصري » . وهو الى ذلك كله مغرم بالموسيقى العالمية ، متعشق لها يرى فيها قمة ماوصلت اليه الحضارة الغربية من ابداع الفكر والفن .

وحسبك ان تلقي نظرة عابرة على انتاجه لترى فيه صورة صادقة لهذا الاديب الفنان ، فسندباد عصري ، وحديث السندباد القديم ، وسندباد الى الغرب ، والموسيقى السمفونية ، صور شتى لشخصية واحدة ، شخصية الاديب الفنان الدكتور حسين فوزي .

اما « سندباد مصري » فهو الكتاب الاخير الذي جعلته موضوع هذه الكلمة ، دفعني الى قراءته اعجاب سابق بالطريقة الفنية التي سجل بها هذا الاديب رحلاته السابقة في كتبه الماضية .

بدأ الكاتب الاديب مقدمة الكتاب بالكلمات التالية : « لا فضل لي في هذا الكتاب الا ان رسمت خطته ، ونظمت فصوله ، تبعا لانفعالاتي الشخصية بتاريخ بلادي . » وانا اقول بدوري لافضل لي في هذا النقد العابر وانما هي كلماته تشهد له او عليه .

عنوان الكتاب « سندباد مصري » جولات في رحاب التاريخ ، فهي رحلة زمانية يطوف بنا سندبادها المصري في رحاب الزمان ، لا في رحاب المكان وينتقل بنا عبر الزمان من « الظلام » اثناء الحكم العثماني الى « الخيط الابيض والخيط الاسود » اثناء العصور الفارسية والرومانية والعربية الى « الضياء » في عهد الفراعنة وذلك حسب تقسيم الكاتب لهذه العهود ، ويجول بنا في رحاب هذه القرون متنقلا من عهد الى عهد مبديا شعوره واحساسه اديبا وفنانا لا مؤرخا .

فهات يدك وضعها في يدي ، دعنا نصحب سندبادنا في رحلته الجديدة لنرى هل تروق لنا هذه الرحلة فنعود منها غانمين ، ام نرجع ونحن نردد مع الشاعر :

وقد طوفت في الافاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب

اوضح الكاتب في مقدمة كتابه وخاتمته الهدف العام من هذه الرحلة والدوافع النفسية اليها فقال :

في صفحة ١١ : « وكتابي صور من ملحمة هذا الشعب الذي افخر بانتمائي واحد من آحاده . »

وفي صفحة ١١ ، ١٢ : « وهذا هو حظي نفسه في كتابي : ان اكون قد وفقت او اكون قد اخفقت في اخراج الصور الذهنية الوجدانية التي طبعها في نفسي تاريخ مصر كله ، كوحدة متكاملة . »

وفي صفحة ٣٤٤ : « انما الذي يعنيني ، والذي يجب ان نهتم به كل الاهتمام هو ان نعيد تلك الحضارة في نفوسنا وذلك بان نحاول فهمها وان ندرس حكمتها وعلمها وفنها ، الى جانب دراساتنا للحضارة العربية والحضارة الاوربية ، حكمتها وعلمها وفنها . »

وفي صفحة ١٢ : « كتابي ادبي محض ، احاسب عليه في حدود الادب والفن » .

ولن انظر الى الكتاب من زاوية التاريخ ، بل سانظر اليه من زاوية الادب والفن حيث شاء صاحب الكتاب ان تكون المحاسبة والنقاش .

ويحسن بنا ان نتذكر ماقاله الكاتب في مقدمة كتابه في صفحة ١١: « كتبته في بحبوحة الادب والفن : حرية في الفكر ، وتحرر في الاسلوب » لنرى الى اي حد اوصله مفهوم الحرية في الفكر .

يقول في صفحة ٤٧ ، ٤٨ عند الحديث عن خروج الشعب في مصر لملاقاة الفرنسيين بقيادة نابليون :

« انما نؤكد هنا ظاهرة فذة في تاريخ مصر ، لم تعرفها منذ الفي عام الا نادرا الا وهي خروج الشعب المصري الى الحرب ، فقد مرت القرون ولم نسمع ان المصريين اشتركوا في قتال بالداخل او بالخارج الا قليلا.»

« يجب ان نعي ذلك كل الوعي ، وان لانخدع بمواقع صلاح الدين وأسرته ولا بغزوات بيبرس ، والناصر محمد ، وقايتباي ، وكلها قامت على كواهل الاجناد الاجنبية . فذلك الوعي له اهمية في فهم ماسيحدث بمصر بعد نكتة الفرنساوية » . وهذا الحدث سيكون نذيرا بيقظة الشعب المصري ، واعلانا بان هذا الشعب سوف يستغرق مائة عام حتى يرى اول الغيث في « هوجة عرابي » ومائة وخمسين عاما حتى ينهمر الغيث اثناء حركة الجيش المصري الصميم ، حركة البعث الكبرى في الساعات الاولى من صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . »

ويقول في صفحة ٥٥ : « سوف يشرق فجر القومية المصرية في سنة ١٩١٩ . وحركة الشعب المصري في مارس من ذلك العام وما تلاه ، جديرة بعناية المؤرخين ، لانها تميزت بكل صفات القومية الكاملة، لا اثر فيها للدين ولا للملة ، ولا زيغ فيها نحو خلافة الباب العالي ، او

لنحو المحتل . ومع انها كانت حركة تحرير من الربقة الاجنبية ، فقد حرصت على مقومات الحضارة الغربية ولم تنبذها . فالكل مصريون قبل كل شيء ، يقاومون الغاصب ويطلبون لبلادهم الاستقلال السياسي والتحرر الاقتصادي والفكري ، اي انهم يهاجمون الرجعية في كل صورها . »

ويقول في الصفحة ٥٥ نفسها : « لو لم تقم ثورة الضباط الاحرار في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لحق للمؤرخ ان يحرر شهادة الوفاة لثورة سنة ١٩١٩ . »

فهل تبيح لنا حرية الفكر التي يؤمن بها الكاتب مثل هذا التفسير للحوادث التاريخية ؟ وهل تحمل هذه الحوادث في ثناياها مثل هذه النظرة التي راها الكاتب من خلال منظاره الشخصي ونزعاته الذاتية ؟

هل نعد النعمة التي نتفيأ في ظلالها من السير في ركاب الوحدة الشاملة ، هل نعد ذلك اثرا من آثار شعور المصري بمصريته كما يشيع في الروح العامة لكتاب ؟

وانظر بعد ذلك الى ماتفرع عن نظرة الكاتب المصرية تجاه التاريخ العربي :

يقول في صفحة ٢١ : « غزاتهم لايريدون منهم الا ان يظلوا البقرة الحلوب . فهذا الامبراطور الروماني طباريوس يكتب لعامله : « ارسلتك لتجز صوف الغنم لا لتسلخ جلده » وهذا الخليفة الراشد يفرح بزيادة الخراج على يد الوالي الذي ارسله ، بعد اقالة عمرو بن العاص ، وينادي على فاتح مصر ليقول له : « لقد درت اللقمة بعدك ياعمرو » فيجيبه القائد الكبير القلب : « نعم ، ولكن اجاعت اولادها . »

« نحن الفرس ، نحن المقدونيين ، نحن الرومان ، نحن الروم ، نحن العرب ، المغاربة ، الكرد ، ابناء فرغانه وكردستان ، نتوكل بامر الحرب والضرب ، ونتولى عنكم ايها المصريون صناعة الحرب . لان صناعتكم يا اهل مصر هي احياء موات الارض وصناعتنا القتل والسلب والنهب ، والكر والفر والدفاع والغزو ، تحرثون وتبذرون وتحصدون ، ونخرب وندمر نسطو .. »

وفي صفحة ٤٨ : « لم يخرج المصريون لمحاربة الاسكندر ، ولا لقتال اوكتافيوس اغسطس قيصر ، ولا لصد عمرو بن العاص ، ولا لصد جنود هولاجو ، ولا لمحاربة الصليبيين ، ولا الفاطميين ولا العثمانيين . ولكنهم امام كل غزو بكوا ضياع الحرية واحسوا ـ وهم الشعب المتحضر العريق ـ بزوال سؤددهم ، وانحطاط دولتهم . وكان شعورهم بالمأساة قويا جدا كلما اقتحم عليهم الغزاة عقر دارهم وقوضوا عرشهم « حتى حين يكون الجالس على هذا العرش اجنبيا عنهم » لينزل بوطنهم الى مرتبة الولاية يحكمها امبراطور في روما ، وخليفة في شبه جزيرة العرب ، وخاقان في الاستانة . »

فالعرب غزاة كالفرس والرومان ، وهم مستغلون اتخذوا مصر بقرة حلوبا كما اتخذها غيرهم من الامم وعلى الرغم من دخولها في حوزة الاسلام فقد اصبحت ولاية لا استقلال لها يظلمها الولاة العرب واهلها من افراد الشعب الكادحين يواصلون بناء الحضارة في صبر وسلام .

هذا هو منطق الكاتب تجاه العرب ، ولذلك فلا غرابة الا تتخذ الحضارة العربية ركنا اساسيا في بناء الحضارة المصرية ، وانما هي عامل من العوامل الاخرى لم يستطع الكاتب اسقاطه من الحساب كليا . اما الحضارة الغربية فاعتزاز الكاتب بها معروف واعجابه باسسها الروحية والفكرية واضح في الفصل المسمى بمصر والحضارة الغربية صفحة ٩٩ من الكتاب .

نحن لانعيب على الكاتب اعجابه بالاسس الفكرية والروحية للحضارة الغربية ولكن حبه لهذه الحضارة حبا شغله عما عداه حتى اصبح الغرب القبلة الاولى لبناء أمتنا بناء فكريا امر لاتقبله أية أمة في عهدها الحاضر . فاعتزاز بالماضي واتخاذه اساسا لبناء النهضات الفكرية والقومية سنة ثابتة لم تحد عنها الامم في تكوين بنائها الحضاري .

ويحتوي الكتاب على القسم الثالث بعنوان الضياء نقلنا فيه الكاتب الى عهد الفراعنة فصور هذا العهد تصويرا ممتزجا بالاعجاب والفخر فهو الضياء المنير في عهود مصر على حقب التاريخ وهذا الاتجاه في مشاعر الكاتب وهذا الاعتزاز امر طبيعي متفرع عما سبق ممتزج به كل الامتزاج .

انظر اليه يقول في صفحة ١١٥ « وما ان تتيقظ مصر ، وتفتح عيونها على حضارة اوربا ، حتى تكتشف امرا عجيبا ، هي التي نسيت تاريخها القديم : ستكتشف ان لتاريخها الذي نسيته ، حسابا اكبر حساب ،عند اصحاب هذه الحضارة الحديثة . ستكتشف ان هؤلاء يعتبرون الحضارة الفرعونية اقدم يقظة للفكر والضمير والاحساس الانساني عرفها التاريخ. فلم يعد مقبولا ان يظل المصريون على جهلهم بحضارة اجدادهم المنسيين منهم وحدهم . »

واعجاب الكاتب بالحضارة الفرعونية نابع من اهتمام الاجانب بهذه الحضارة حتى انه ليقول في صفحة ٢٩٣ « ولا اغلو اذا قلت ان كتابي اليوم ـ وانا اؤلفه فيما بين السنوات ١٩٥٤ و ١٩٥٩ ـ هو ثمرة محاضرة جيمس هنري برستيد عام ١٩٢٣ او ١٩٢٤ . « يشير الى محاضرة لبريستيد في القاهرة على اثر اكتشاف مقبرة توت عنخ امون » .

ينطوي الكتاب على حب عظيم لمصر ، وعلى اعجاب شديد بنضال الشعب المصري ، وقد شرح الكاتب حبه واعجابه بمنطق الاديب الفنان وتجاوز الحد في حريته وطغى شعوره على منطقه ، ففلبت مصريته عروبته ، وهام بتراث الفراعنة حتى شغله عما سواه . ورثى لالام الشعب المصري في كفاحه المستمر لرد المغيرين حتى اصبح ، الكتاب مرثية طويلة لما

شعر

من منشورات دار الاداب

قرارة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
العودة من النبع الحالم	سامى الجيوسي
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

عاناه هذا الشعب على مدى الازمان بعد ان رسمه المؤلف ملحمة لبطولات هذا الشعب وكفاحه .

محمد ابراهيم الخالدي

السجين

قصة من تاليف انيس زكي حسن

نشر دار مكتبة الحياة ـ بيروت

*

عند قراءتي لقصة السجين لانيس زكي حسن لا ادري لم انتابني نفس الشعور الذي ينتاب المرء عندما يسمع باحدى اساطير انطلاق جن النبي سليمان من القمقم .. ففي تحطيم السجين لبلورته شبه غريب بتحطيم الجن للقمقم الذي تظل في محبسه مدى دهور ثم يكسر احدها القمقم فينطلق الجن من عقاله عملاقا جبارا عاتيا يملأ الفضاء ويمتلك كيان المرء ويجسم له شعوره بكونه قزما .. قزما حقيقيا تجاه هذا العملاق المنطلق . وهكذا نجد ان المؤلف اطلق ذات السجين من عقالها وجعلنا نشعر ازاءها بالهلع والرعب .. الهلع من الحقيقة التي تجسمت امامنا ... حقيقة ذراتنا نحن مجردة .. زراتنا الحبيسة كما بين المؤلف في قوله ـ ص ١٣ ـ « بينما كان السجناء حوله يتساءلون كيف دخلت ـ كان هو يتساءل كيف اخرج ؟ وكانه لم يدر بان سجينه يقول هذا وقد وجد خلاصه وحكم على الاخرين بالسجن » .

لقد وانتني هذه الافكار وانا اقرأ قصة السجين . وهي رغما عن كونها قصة مشوقة لانها تكشف لنا حقائق نحاول ان نتغابى تجاهها فاني اظن ان بعض القراء لن يقرأوا الكتاب دفعة واحدة . وهذا ما فعلته ولم يكن ذلك لعجز في الفهم ولكن لكثرة الافكار التي اوردها الكاتب في مؤلفه اذ تجد افكاره تتزاحم وتحاول الخروج مما يجعل القارىء في دوامة من المأزق اذ ما ان يبدأ بتركيز فكره على احدى الافكار التي اوردها المؤلف حتى ينطلق به بسرعة وعبر آفاق واسعة اخرى .

اما من حيث كونها قصة ناجحة فان القراء قد عرفوا انيس زكي حسن مترجما بارعا وها هو الان قاص ايضا يحاول في كتابه هذا ان ينحو بالفكر العربي منحى جديدا لم يعرفه القارىء العربي الا عن طريق التراجم . وان المرء اذ يقرأ القصة يحس بتاثر الكاتب الشديد بافكار كل من كافكا ودوستويفسكي ونيتشه . اذ انه ينحو منحى الاول والثاني في محاولته سبر غور النفس البشرية ومنحى الثالث في محاولته التفوق على ذاته كانسان .. ولهذا لايجد متسعا من الوقت لتزويق كلماته تزويقا شعريا يجعلها تنساب انسيابا طبيعيا . ولكن هذا لا يمنعنا من الشعور بكون الكاتب شاعرا مرهف الحس اذ انه بالرغم من تجريده للكلمات في بعض الصفحات ومحاولته الساخرة لمسخ معانيها فاننا نستشف من وراء ذلك كله روحا شاعرية .. حتى في قوله في احد المقاطع . ـ نار .. هواء .. ماء .. ثم وضعه بعد هذه الكلمات الثلاث مقاطع اخرى لا معنى لها .. يجعلك تحس بكيانك يمتزج بالطبيعة والكون الذي يحيط بك لانه نجح في اثارة المعاني الشعرية التي تحد بها هذه الكلمات بوضعه اياها مجردة .

ويتملك القارىء نفس الشعور تجاه الكاتب كقاص . اذ انه بالرغم من خروجه بقصته عن حدود الاطار القصصي الكلاسيكي المألوف اذ لانرى فيها ما للقصص الاخرى من عرض وازمة ونهاية ولكنه يجعلك تبقى على احساسك بكونها قصة لان فيها مقدمة وازمة ونهاية بالرغم من عرضه للامر بصورة تختلف عما اعتدنا عليه . وبهذا بقيت محتفظة بالطابع القصصي لانها تعالج ازمة شخص موجود بيننا ويعيش معنا بالرغم من وجود الحاجز الزجاجي غير المنظور بين عالمه وعالمنا .. هذا الحاجز الذي حطمه المؤلف وبذلك مزج عوالم السجين اللامتناهية بعالمنا الذي نعيشه .. وهنالك ناحية يحس القارىء وهو يطالع السجين بكون الكاتب يعاني من ازمة فكرية .. وتتضح هذه الازمة في الصور الحية التي اوردها في قصته .. فحينا تراه يرتفع الى قمم غير منظورة ويأتي بافكار جديدة « ص ٢٩ » . ـ ستصحو البشرية في يوم من الايام من غفوتها وتنتبه الى نفسها فتجد انها غارقة في وسط اكداس من هذه الصفحات .. الخ ثم يعود فيهبط بسرعة الى المستوى العادي في السرد القصصي ويأتينا بصور لا تختلف عما اتى به بقية الكتاب في وصفه للنزوات والاهواء التي تتقاذف ذات السجين المسكين في شعوره تجاه المرأة وكذلك في عرضه لفكرة علاقة البشر بالخراف اذ ان هذه الفكرة قد سبقه اليها الكتاب الغربيون في بحثهم لغريزة القطيع عند البشر وكذلك بعض الافكار الاخرى التي اوردها الكاتب من غير الاشارة الى كونها مقتبسة كقوله . ـ مياه النهر لاتعود الى مجراها مرتين .

وقبل الانتهاء اود ان اعلق على الفصل السابع من القصة اذ وصل فيه الكاتب الى قمة لم يسبقه اليها الا نيتشه في « زرادشت » وجبران في « نبيه » اذ تحس بان صعود السجين الذي اراده له الكاتب الى جبله او قمته التي اكتشفها في ذاته هو نفس الصعود الى القمة التي ارتقاها السابقان وان اختلف السرد واختلفت تجربة الصعود .

بغداد — **سهى الطريحي**

صدر حديثا :

المهزومون

بقلم هاني الراهب

موهبة روائية جديدة تبزغ

في سماء الادب العربي الحديث

الثمن ٣٠٠ ف.ل ـ ٣٧٥ ف.س — دار الآداب